

عِنْدَمَا تَتَصَادَمُ الْعَوَالِمُ

المحاضرة ٥: إيجاد السلام

أ.ر. سي. سرول

حينَ نَجْتَمِعُ سَوِيًّا هُنَا فِي هَيْئَةِ لِيْجُونِيَرٍ لِتَصْوِيرِ مُحَاضَرَاتِنَا أَوْ لِإِعْدَادِ مُحَاضَرَاتٍ لِلإِدَاعَةِ، لَدَيْنَا جِهَازٌ هُنَا يُمَكِّنُ لِلْكَلِّ أَنْ يَرَاهُ، يُوجَدُ عَلَى هَذَا الْجِهَازِ تَمَثَالٌ رُبَّمَا لِأَشْهَرِ مَنْحُوْتَةٍ نَعْرِفُهَا لِرُودَانَ. وَمَا هِيَ؟ الْمَفْكَرُ. وَالسُّؤَالُ الْمَطْرُوحُ الْيَوْمَ هُوَ: "مَا الَّذِي يُفَكِّرُ فِيهِ؟" وَسَأَلْتُ الْحُضُورَ: "مَا الَّذِي يُفَكِّرُ فِيهِ الْمَفْكَرُ؟" وَاقْتَرَحَ الْبَعْضُ أَنَّهُ يُفَكِّرُ فِي مَعْنَى الْحَيَاةِ، لَكِنَّ طِبْقًا لِرُودَانَ، مَا كَانَ يُحَاوِلُ تَصْوِيرَهُ هُنَا فِي هَذِهِ الْمَنْحُوْتَةِ لِشَخْصٍ مَأْخُوذٍ بِالتَّأْمُلِ، هُوَ أَنَّ الْمَفْكَرَ كَانَ يُفَكِّرُ فِي الْجَحِيمِ، وَهُوَ أَمْرٌ نَشْمِزُّ مِنَ التَّفَكِيرِ فِيهِ فِي يَوْمِنَا هَذَا. لَكِنَّ فِي الْمَحَاضَرَةِ السَّابِقَةِ تَحَدَّثْنَا عَنْ حَقِيقَةِ عَضَبِ اللَّهِ، عِلْمًا بِأَنَّ الإِظْهَارَ النِّهَائِيَّ لِهَذَا الْعَضَبِ هُوَ عَقِيدَةُ الْجَحِيمِ. وَقَدْ تَمَّ مَحْوُ ذَلِكَ مِنْ إِدْرَاكِنَا الْيَوْمَ، لِأَنَّ عَقِيدَةَ الْخَلَاصِ الرَّئِيسِيَّةِ فِي أَمْرِيكَا الْيَوْمَ، أَوْ الْعَقِيدَةَ الْأَكْثَرُ رَوَاجًا لِمَا نُسَمِّيهِ التَّبْرِيرَ، لَيْسَتْ التَّبْرِيرَ بِالِإِيمَانِ، وَلَا التَّبْرِيرَ بِالْأَعْمَالِ، بَلِ التَّبْرِيرُ بِالْمَوْتِ؛ أَيَّ أَنْ كُلَّ مَا عَلَى الْمَرَّةِ فَعَلُهُ لِيَنْتَقِلَ إِلَى السَّمَاءِ هُوَ الْمَوْتُ، لِأَنَّنا مَحْوْنَا مِنْ وَعَيْنَا أَيَّ فِكْرَةٍ عَنْ إِمْكَانِيَّةِ وُجُودِ وَجْهَةٍ أَكْثَرَ قِتَامَةٍ لِلنَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ مِنَ الْحَيَاةِ الْآبَدِيَّةِ فِي السَّمَاءِ.

فِي الْأَصْحَاحِ ١٣ مِنْ إِنْجِيلِ لُوقَا، نَرَى حَادِثَةً أُخْرَى يَسْأَلُ فِيهَا التَّلَامِيذُ يَسُوعَ عَنِ الْأَلَمِ وَالْمَأْسَاةِ. سَبَقَ أَنْ دَرَسْنَا الْمُنَاسَبَةَ الَّتِي سَأَلَ فِيهَا التَّلَامِيذُ يَسُوعَ - كَمَا وَرَدَ فِي الْأَصْحَاحِ ٩ مِنْ إِنْجِيلِ يُوحَنَّا - عَنِ الْاِخْتِبَارِ الْمَأْسَاوِيِّ لِلرَّجُلِ الَّذِي وُلِدَ أَعْمَى. تَذَكَّرُونَ قَوْلَهُمْ لِيَسُوعَ: "مَنْ أَخْطَأَ: هَذَا أَمْ أَبَوَاهُ حَتَّى وُلِدَ أَعْمَى؟" وَأَجَابَ يَسُوعُ بِالْقَوْلِ: "لَا هَذَا أَخْطَأَ وَلَا أَبَوَاهُ". ثُمَّ اكْتَشَفْنَا مَدَى أَهْمِيَّةِ الْاِئْتِبَاهِ أَلَّا نَفْتَرِضَ أَنَّهُ حِينَ يَتَأَلَّمُ النَّاسُ أَوْ يَجْتَازُونَ فِي اِخْتِبَارَاتٍ مَأْسَاوِيَّةٍ، أَنَّهُ يُوجَدُ تَوَافُقٌ بَيْنَ دَرَجَةِ مُعَانَاتِهِمْ وَفِدَاحَةِ ذَنْبِهِمْ.

لَكِنَّ ثَمَّةَ مَأْسَاةٍ أُخْرَى اسْتَرَعَتِ اهْتِمَامَ مُعَاصِرِي يَسُوعَ، وَفِي الْآيَةِ ١ مِنَ الْأَصْحَاحِ ١٣ سَأَلَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ يَسُوعَ عَنِ الْأَمْرِ. فِي الْآيَةِ ١ مِنَ الْأَصْحَاحِ ١٣ مِنْ إِنْجِيلِ لُوقَا نَقْرَأُ مَا يَلِي: "وَكَانَ حَاضِرًا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ قَوْمٌ يُخِيرُونَهُ عَنِ الْجَلِيلِيِّينَ الَّذِينَ خَلَطَ بِيلاطُسَ دَمَهُمْ بِذَبَابِهِمْ. فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ: "أَتُظَنُّونَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْجَلِيلِيِّينَ كَانُوا خُطَاةً أَكْثَرَ مِنْ كُلِّ الْجَلِيلِيِّينَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا مِثْلَ هَذَا؟ كَلَّا! أَقُولُ لَكُمْ...".

وَالآنَ، دَعُونِي أَنْتَوَقَّفَ عِنْدَ هَذِهِ النُّقْطَةِ لِتَوْضِيحِ أبعادِ الصُّورَةِ. أَصَابَتْ مَأْسَاةُ أَنْاسًا أُبْرِيَاءَ، قَوْمًا فِي خِصْمِ الْعِبَادَةِ يُقَدِّمُونَ ذَبَابَهُمْ فِي كَنِيسَةِ ذَلِكَ الْحِينِ. حِينَ جَاءَ بِيلاطُسُ الْبُنْطِيُّ وَجَمَاعَتُهُ وَذَبَحُوا هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ بَيْنَمَا كَانُوا فِي خِصْمِ الْعِبَادَةِ، وَمَرَجُوا دِمَاءَهُمْ بِدِمَاءِ الْجَلِيلِيِّينَ. فَحَزَنَ النَّاسُ كَثِيرًا بِسَبَبِ هَذَا الْأَمْرِ، وَالسُّؤَالُ الضَّمْنِيُّ الَّذِي طَرَحُوهُ عَلَى يَسُوعَ هُنَا هُوَ: "كَيْفَ سَمَحَ اللَّهُ بِحُدُوثِ ذَلِكَ؟" فَقَالَ يَسُوعُ: "أَتُظَنُّونَ أَوْ تَفْتَرِضُونَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْجَلِيلِيِّينَ كَانُوا خُطَاةً

أَكْثَرَ مِنْ سَائِرِ النَّاسِ؟" وَقَالَ: "إِنِّي أَقُولُ لَكُمْ كَلًّا، لَا يُمَكِّنُكُمْ الْاسْتِنْتَاجُ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ الَّذِينَ كَابَدُوا تِلْكَ الْبَلِيَّةَ وَالَّذِينَ هَلَكُوا فِي تِلْكَ الْكَارِثَةِ هَلَكُوا لِأَنَّهُمْ كَانُوا مُذْنِبِينَ فِيمَا كَانَ آخِرُونَ أَبْرِيَاءَ، أَوْ لِأَنَّهُمْ كَانُوا مُذْنِبِينَ أَكْثَرَ مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ نَجَوْا مِنْ تِلْكَ الْبَلِيَّةِ بِالذَّاتِ".

أَذْكَرُ حَادِثَةِ الْقِطَارِ الْكَبِيرِ الَّذِي كُنْتُ أَسْتَقِلُّهُ فِي أَلَاباما فِي الْعَامِ ١٩٩٣، حِينَ جَنَحَ الْقِطَارُ وَوَقَعَ فِي الْمِيَاهِ، وَقُتِلَ فِي حَادِثَةِ الْقِطَارِ تِلْكَ عَدَدٌ مِنَ الْأَشْخَاصِ يَفُوقُ عَدَدَ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي حَوَادِثِ "أَمْتْرَاك" مُجْتَمِعَةً. فَنَجَوْتُ وَرَزَجْتِي مِنْ حَادِثَةِ الْقِطَارِ تِلْكَ. وَحِينَ رَجَعْنَا إِلَى أُوْرُلَانْدُو، أَحَاطَ بِنَا مُرَاسِلُونَ وَمُذِيعُونَ تِلْفِزِيُونِيُونَ، وَظَلُّوا يَظْرَحُونَ عَلَيَّ السُّؤَالَ نَفْسَهُ: "فِي رَأْيِكَ، لِمَاذَا نَجَّأكَ اللهُ؟" فَقُلْتُ "لَا فِكْرَةَ لَدَيَّ". لِكِنِّي لَا أُرِيدُ الْاِفْتِرَاصَ أَيَّ كُنْتُ الْمَحْظُوظَ، لِأَنَّهُ إِنْ هَلَكَ مُؤْمِنُونَ فِي حَادِثَةِ الْقِطَارِ تِلْكَ، فَلَا بُدَّ مِنْ أَنَّهُمْ أَمَضُوا الْيَوْمَ التَّالِي فِي ظُرُوفٍ أَفْضَلَ بِكَثِيرٍ مِنْ ظُرُوفِي وَذَهَبُوا مُبَاشَرَةً إِلَى السَّمَاءِ. لَكِنِ مُجَدِّدًا، هَذَا يَعْكِسُ نَظَرَتَنَا السَّلْبِيَّةَ لِلْمَوْتِ، كَمَا لَوْ أَنَّ الْمَوْتَ هُوَ أَسْوَأُ بَلِيَّةٍ قَدْ تُصِيبُ أَحَدَهُمْ، فِيمَا أَنَّهُ أَعْظَمُ أَمْرٍ قَدْ يَحْدُثُ لِلْإِنْسَانِ الْمُفْدِي.

لَكِنِ عَلَى أَيِّ حَالٍ، هَذَا هُوَ السُّؤَالَ الَّذِي طَرَحَهُ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ عَلَى يَسُوعَ: "كَيْفَ يُعْقَلُ أَنْ يَمُوتَ هَؤُلَاءِ؟" قَالَ يَسُوعُ "لَيْسَ أَنَّهُمْ كَانُوا خُطَاةً أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِمْ". لَكِنِ تَوَقَّفْتُ فِي مُنْتَصَفِ جَوَابِ يَسُوعَ، فَلَمَّزْتُ الْجُزْءَ الْمُتَبَقِّي مِنْهُ: "كَلًّا أَقُولُ لَكُمْ" - فَاصِلَةٌ - "بَلْ إِنْ لَمْ تُتُوبُوا فَجَمِيعُكُمْ كَذَلِكَ تَهْلِكُونَ". أَتَتَخَيَّلُونَ أَنَّ يَنْجُو يَسُوعُ بِعِظَةِ مُمَاثِلَةٍ فِي الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ فِي أَمْرِيكَ؟ فِي وَسْطِ الْمَآسَاةِ، وَبَدَلًا مِنْ إِعْطَاءِ رِسَالَةِ تَعَزِيَّةٍ وَرَجَاءٍ وَمَوَاسَاةٍ، يَقُولُ يَسُوعُ: "لَا تَعْتَبِرُوا هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ أَسْوَأَ مِنْكُمْ، لِأَنَّكُمْ مَا دُمْتُمْ غَيْرَ تَائِبِينَ أَمَامَ اللهِ فَسَتَهْلِكُونَ أَنْتُمْ أَيْضًا". ثُمَّ يُتَابِعُ وَيُجِيبُ عَلَى السُّؤَالَ التَّالِي: "أَوْ أَوْلِيكَ الثَّمَانِيَّةَ عَشَرَ الَّذِينَ سَقَطَ عَلَيْهِمُ الْبُرْجُ فِي سِلْوَامَ وَقَتْلَهُمْ، أَتَظُنُّونَ أَنَّ هَؤُلَاءِ كَانُوا مُذْنِبِينَ أَكْثَرَ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ السَّاكِنِينَ فِي أُورُشَلِيمَ؟"

وَالْيَوْمَ حَادِثَةُ انْهِيَارِ بُرْجِ أُخْرَى، وَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ لَمْ يَقْتُلْ ٦٠٠٠ شَخِصًا، بَلْ قُتِلَ ١٨ شَخِصًا فَقَطْ، لَكِنِ الْأَمْرَ كَانَ مَآسَاوِيًا كِفَايَةً حَتَّى جَاءَ النَّاسُ إِلَى يَسُوعَ، قَائِلِينَ: "كَيْفَ سَمَحَ اللهُ بِحُدُوثِ ذَلِكَ؟" وَيُمَكِّنُكُمْ أَنْ تَتَوَقَّعُوا أَنْ يُجِيبَ يَسُوعُ قَائِلًا: "أَنَا أَسِفُّ جِدًّا عَلَى ذَلِكَ". أَنَا أَعْلَمُ أَنَّ الْكِتَابَ الْمُقَدَّسَ يَقُولُ إِنَّهُ لَا يَنْعَسُ وَلَا يَنَامُ حَافِظُ إِسْرَائِيلَ، لَكِنِ هَذِهِ صِيغَةٌ مُبَالِغَةٌ، هَذَا شَعْرٌ، وَتَعْلَمُونَ أَنَّ عَمَلَ اللهِ مِنْ ضَبْطِ وَمُرَاقَبَةِ كُلِّ دَرَّةٍ تَتَحَرَّكُ فِي هَذَا الْكُونِ الشَّاسِعِ هُوَ مُهِمَّةٌ شَاقَّةٌ حَتَّى بِالنِّسْبَةِ إِلَى اللهِ. وَحَتَّى اللهُ يَحْتَاجُ إِلَى الرَّاحَةِ بَيْنَ الْحِينِ وَالْآخِرِ. وَبَعْدَ ظَهْرِ ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَبَيْنَمَا كَانَ يَأْخُذُ قَيْلَوْلَةَ خَارِجَ نِطَاقِ سُلْطَانِهِ، وَقَعَ ذَلِكَ الْبُرْجُ عَلَى ١٨ شَخِصًا. يُوسُفِي مَا حَدَّثَ، سَأَطْلُبُ مِنْهُ الْاِئْتِبَاءَ أَكْثَرَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ. أَوْ أَخْبَرْتُكُمْ بِأَنَّهُ مَا مِنْ طَيْرٍ يَحْطُّ عَلَى الْأَرْضِ مِنْ دُونِ أَنْ يُلَاحِظَهُ، وَفِي الْوَاقِعِ، شَعْرُ رَأْسِكَ مَعْدُودٌ

لَدَيْهِ، لَكِنَّ بَعْدَ ظَهْرِ ذَلِكَ الْيَوْمِ بِالذَّاتِ كَانَ مَشْغُولًا جِدًّا بِتَعْدَادِ شَعْرِ رَأْسِ رَجُلٍ كَثِيفِ الشَّعْرِ، فَتَحَوَّلَ انْتِبَاهُهُ عَنِ ذَلِكَ الْبُرْجِ الَّذِي سَقَطَ."

تَعَلَّمُونَ أَنَّهُ لَيْسَ هَذَا مَا قَالَهُ يَسُوعُ. وَيَسُوعُ لَا يَقُومُ بِأَيِّ مُحَاوَلَةٍ لِتَبْرِئَةِ اللَّهِ هُنَا، أَيْ لَا يُحَاوِلُ أَنْ يُبَرِّرَ اللَّهَ عَلَى وُقُوعِ الْمَآسِي فِي الْعَالَمِ. تَرَوْنَ أَنَّهُ كَانَتْ لَدَى يَسُوعَ وَجْهَةٌ نَظَرٍ عَنِ الْحَيَاةِ مُخْتَلِفَةً تَمَامًا عَنِ وَجْهَةِ نَظَرِنَا؛ كَانَتْ لَدَى يَسُوعَ رُؤْيَاةٌ لِلَّهِ مَفَادُهَا أَنَّ اللَّهَ الْآبَ كَامِلٌ تَمَامًا فِي بَرِّهِ وَعَدْلِهِ. وَكَانَتْ لَدَيْهِ أَيْضًا رُؤْيَاةٌ لِلإِنْسَانِ مُخْتَلِفَةً تَمَامًا عَنِ رُؤْيَيْنَا، لِأَنَّ يَسُوعَ كَانَ يَرَى أَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ مُذْنِبٌ أَمَامَ اللَّهِ، وَكُلُّ إِنْسَانٍ مَدِينٌ لِلَّهِ، وَلَا يُمَكِّنُ لِهَذَا الشَّخْصِ أَنْ يُسَدِّدَ ذَلِكَ الدَّيْنَ. سَأَتَكَلِّمُ أَكْثَرَ عَنِ الْأَمْرِ بَعْدَ قَلِيلٍ. لَكِنَّ مُجَدِّدًا، نَحْنُ نُعْطِي الرَّدَّ نَفْسَهُ الَّذِي أَعْطَاهُ بِشَأْنِ الْحَادِثَةِ الَّتِي حَلَطَ فِيهَا بِيلاطُسُ دَمَ الشَّعْبِ بِالدَّبَائِحِ لِتَفْسِيرِ انْتِهْيَارِ ذَلِكَ الْبُرْجِ فِي سِلْوَامَ، فَيَقُولُ: "إِنْ لَمْ تَتُوبُوا فَجَمِيعُكُمْ كَذَلِكَ تَهْلِكُونَ".

دَعُونِي أَقُولُ أَمْرَيْنِ عَنِ الْجَحِيمِ، وَهُمَا غَيْرُ رَاجِحَيْنِ إِظْلَاقًا. لَا أَحَدٌ يُعَلِّمُنَا عَنِ الْجَحِيمِ فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ أَكْثَرَ مِنْ يَسُوعَ. وَثَانِيًا، يَسُوعُ عَلَّمَ عَنِ الْجَحِيمِ أَكْثَرَ مِمَّا عَلَّمَ عَنِ السَّمَاءِ. لَكِنَّ إِنْ كَانَ يُوجَدُ أَيُّ تَعْلِيمٍ لِيَسُوعَ لَا تُصَدِّقُهُ الْكَنِيسَةُ، فَهُوَ تَعْلِيمُهُ عَنِ هَذِهِ الْبَلِيَّةِ الرَّهِيْبَةِ الَّتِي تَنْتَظِرُ الْعَالَمَ غَيْرَ النَّائِبِ. إِنَّ كَاتِبَ رِسَالَةِ الْعِبْرَانِيِّينَ، وَهُوَ يَتَأَمَّلُ فِي الْفِدَاءِ الْكَبِيرِ الَّذِي تَمَّمَهُ لَنَا الْمَسِيحُ، يُشَبِّهُنَا بِالشَّعْبِ فِي الْعَهْدِ الْقَدِيمِ الَّذِي أَنْكَرَ رَحْمَةَ اللَّهِ جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ بَعْدَ جِيلٍ، وَأَنْكَرَ مَرَاحِمَ اللَّهِ، وَأَنْكَرَ نِعْمَةَ اللَّهِ أَمَامَ الْخَطَرِ الدَّائِمِ الْمُحْدِقِ بِهِ. وَيُجْرِي كَاتِبُ رِسَالَةِ الْعِبْرَانِيِّينَ مُقَارَنَةً بَيْنَ إِلَهِ الرَّحْمَةِ فِي الْعَهْدِ الْقَدِيمِ، وَرَحْمَتِهِ فِي الْعَهْدِ الْجَدِيدِ؛ وَيُشِيرُ إِلَى غِنَى النِّعْمَةِ الَّتِي يَفِيضُ اللَّهُ بِهَا عَلَى الْعَالَمِ مِنْ خِلَالِ عَطِيَّةِ الْمَسِيحِ فِي الْعَهْدِ الْجَدِيدِ؛ وَيَتَكَلَّمُ عَنِ عَظَمَةِ الْخَلَاصِ الَّذِي تَمَّمَهُ يَسُوعُ. ثُمَّ يَطْرُحُ هَذَا السُّؤَالَ الْبَلَاغِيَّ: "فَكَيْفَ نَنْجُو نَحْنُ إِنْ أَهْمَلْنَا خَلَاصًا هَذَا مِقْدَارُهُ؟" مَا الَّذِي يَجْعَلُ هَذَا السُّؤَالَ بَلَاغِيًّا؟ السُّؤَالَ الْبَلَاغِيَّ هُوَ سُّؤَالَ مُعَلَّنٍ أَوْ مَنْطُوقٍ، وَلَا شَكَّ فِي جَوَابِهِ. وَهَذَا السُّؤَالَ الَّذِي يَطْرُحُهُ الْكَاتِبُ - "فَكَيْفَ نَنْجُو نَحْنُ إِنْ أَهْمَلْنَا خَلَاصًا هَذَا مِقْدَارُهُ؟" - الْجَوَابُ عَلَيْهِ وَاضِحٌ. مَاذَا؟ لَا يُمَكِّنُنَا أَنْ نَنْجُو، وَلَنْ نَنْجُو. يُوجَدُ شَرْطٌ وَضَعَهُ الْمَسِيحُ وَالْعَهْدُ الْجَدِيدُ وَكَلِمَةُ اللَّهِ لِلنَّجَاةِ، وَهَذَا الشَّرْطُ هُوَ التَّوْبَةُ - التَّوْبَةُ وَالْإِيمَانُ. "مَا لَمْ تَفْعَلِ الْأَمْرَ الْأَوَّلَ"، يَقُولُ يَسُوعُ، "فَالْأَمْرُ الثَّانِي سَيَتَّبَعُهُ لَا مَحَالَةَ". وَالْأَمْرُ الثَّانِي هُوَ كَالثَّانِي: "الْهَلَاكُ"، مَا لَمْ تَسْتَوْفِ هَذَا الشَّرْطَ. لِيَا أَنَا أَمِيلُ إِلَى التَّشْدِيدِ عَلَى مَدَى خُطُورَةِ وُقُوفِ الْخُدَّامِ وَالْوُعَاظِ وَإِخْبَارِهِمْ لِلنَّاسِ عُمُومًا بِأَنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْجَمِيعَ بِلا شُرُوطٍ. لِأَنَّكَ حِينَ تَسْمَعُ هَذِهِ الْعِبَارَةَ - "الْمَحَبَّةُ غَيْرُ الْمَشْرُوطَةِ" - تَعْنِي هَذِهِ الْعِبَارَةُ لِلشَّخَاصِ الَّذِينَ يَسْمَعُونَهَا بِأَنَّ: يُمَكِّنُنِي أَنْ أَفْعَلَ مَا أَشَاءُ وَمَتَى أَشَاءُ، وَلَيْسَ عَلَيَّ أَنْ أَفْلُقَ أَبَدًا بِشَأْنِ اللَّهِ، لَيْسَ عَلَيَّ أَنْ أَفْلُقَ أَبَدًا بِشَأْنِ النَّجَاةِ مِنْهُ، لِأَنَّ مَحَبَّتَهُ غَيْرُ مَشْرُوطَةٍ. مِنْ نَاحِيَةٍ، مَحَبَّتُهُ غَيْرُ مَشْرُوطَةٍ، لَكِنَّ خَلَاصَهُ مَشْرُوطٌ. فَهُوَ يَطْلُبُ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ فِي كُلِّ مَكَانٍ أَنْ يَتُوبُوا، وَأَنْ يَعْتَرِفُوا بِخَطَايَاهُمْ، وَأَنْ يَتَخَلَّوْا عَنِ أَيِّ رَجَاءٍ فِي أَنْ يَفِدُوا أَنْفُسَهُمْ. لَيْسَ مَا يُمَكِّنُكَ فِعْلُهُ لِتُنَجِّي نَفْسَكَ.

مُجَدِّدًا، يَصِفُنَا يَسُوعُ بِأَشْخَاصِ مَدِينِينَ. وَالْمَدِينُونَ هُمْ أَشْخَاصٌ تَتْرَاكُمُ عَلَيْهِمْ دُيُونٌ غَيْرٌ مُسَدَّدَةٌ. إِنْ رَاجَعْنَا الْمَبَادِيءَ الْأَوَّلِيَّةَ لِفَهْمِنَا لِلَّهِ، تَذَكَّرُوا أَنَّ وُجْهَةَ نَظَرِنَا عَنِ الْحَيَاةِ تَبْدَأُ بِكَيْفِيَّةِ فَهْمِنَا لِطَبِيعَةِ اللَّهِ، وَفِي قَلْبِ فَهْمِنَا لِلَّهِ يَكْمُنُ إِذْرَاكُنَا أَنَّ اللَّهَ بِصِفَتِهِ صَانِعِنَا وَمُتَسَلِّطًا عَلَيْنَا، وَهُوَ السَّيِّدُ عَلَى الْجِنْسِ الْبَشَرِيِّ كُلِّهِ، هَذَا الْإِلَهَ يَتَمَتَّعُ بِشَكْلِ أَبَدِيٍّ وَطَبِيعِيٍّ وَجَوْهَرِيٍّ بِالْحَقِّ الْمُطْلَقِ بِفَرْضِ التَّزَامَاتِ عَلَيْكَ. تَعْرِفُونَ كَيْفَ تَسِيرُ الْأُمُورُ، وَكَمْ أَنَّنَا نَشْعُرُ بِالْحُزْنِ غَالِبًا حِينَ يَقُولُ أَحَدُهُمْ "عَلَيْكَ أَنْ تَفْعَلَ هَذَا الْأَمْرَ، أَوْ أَنْ تَفْعَلَ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَوْ غَيْرَهُ". وَنَحْنُ نَتَّعِبُ مِنَ الْأَشْخَاصِ الَّذِينَ يُشِيرُونَ إِلَيْنَا بِالِإِصْبَعِ قَائِلِينَ إِنَّ عَلَيْنَا فِعْلَ أَمْرٍ مَا - "عَلَيْكَ أَنْ تَفْعَلَ هَذَا الْأَمْرَ" - وَبِفَرْضُونِ عَلَيْنَا عِبْنًا مِنَ الدَّنْبِ أَوْ التَّزَامًا لَمْ نَطْلُبْهُ. يُخْبِرُنِي أَنَّاسٌ كَثِيرٌ إِنَّ عَلَيَّ فِعْلَ أَمْرٍ مَا وَلَا سُلْطَانَ لَدَيْهِمْ لِقَوْلِ ذَلِكَ لِي. لَكِنْ إِنْ نَظَرْتُ إِلَيَّ اللَّهُ الْقَدِيرُ قَائِلًا: "يَا أَرْسِي، عَلَيْكَ أَنْ تَفْعَلَ كَذَا وَكَذَا"، فَلَا يُمَكِّنِي أَنْ أُجَادِلَ الْقَدِيرَ، لِأَنَّ اللَّهَ يَتَمَتَّعُ بِالْحَقِّ الضَّمْنِيِّ بِفَرْضِ التَّزَامَاتِ عَلَيَّ. وَاللَّتَّزَامُ الَّذِي فَرَضَهُ عَلَيْكَ، وَاللَّتَّزَامُ الَّذِي فَرَضَهُ عَلَيَّ، هُوَ الْإِتِّزَامُ بِطَاعَةِ نَامُوسِهِ. وَهَذَا التَّامُوسُ هُوَ مَا يَقِيسُ دَرَجَةَ مَدْيُونِيَّتِي لِلَّهِ.

فِي فَصْلِ تَعْلِيمِ حَقَائِقِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ لِلصِّغَارِ نَسْأَلُ الْأَوْلَادَ "مَا هِيَ الْخَطِيئَةُ؟" وَالْجَوَابُ "الْخَطِيئَةُ هِيَ أَيُّ تَفْصِيرٍ فِي الْإِتِّزَامِ بِشَرِيعَةِ اللَّهِ، أَوْ هِيَ التَّعَدِّيُّ عَلَى شَرِيعَةِ اللَّهِ". وَعَدَمُ طَاعَةِ اللَّهِ هُوَ كَسْرٌ لِلنَّامُوسِ. وَكَلَّمَا امْتَنَعْنَا عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ، ارْتَكَبْنَا خَطِيئَةً مَا، فَإِنَّا نَجْلُبُ دَيْنًا عَلَى أَنْفُسِنَا. فِي فَصْلِ مَدْرَسَةِ الْوَاحِدِ فِي كِنَيْسَتِي الْأُسْبُوعِ الْمَاضِي، كُنَّا نَتَكَلَّمُ عَنْ مَقْطَعٍ مِنَ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ - سَأَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ بَعْدَ قَلِيلٍ - لَكِنَّا تَكَلَّمْنَا عَنْ هَذِهِ الصُّورَةِ الَّتِي أَعْطَاهَا بُولُسُ عَنِ ادِّخَارِ الْعَضْبِ وَتُخْزِينِهِ لِيَوْمِ الْعَضْبِ. وَسَبَبُ اسْتِعْمَالِ هَذَا التَّوَعُّدِ مِنَ التَّشْبِيهِ هُوَ وُجُودُ مَدْيُونِيَّةٍ بَارِزَةٍ. فَكَلَّمَا خَرَقْتُ نَامُوسَ اللَّهِ فَإِنِّي أَجْلُبُ عَلَى نَفْسِي دَيْنًا مَعْنَوِيًّا، وَفِي الْمَرَّةِ التَّالِيَةِ الَّتِي أُخْطِئُ فِيهَا يَتَعَاطَمُ الدَّيْنُ، وَفِي الْمَرَّةِ التَّالِيَةِ الَّتِي أُخْطِئُ فِيهَا يَزْدَادُ الدَّيْنُ، فَتَتَكَدَّسُ تِلْكَ الدُّيُونُ حَتَّى يَوْمَ الدَّيْنُونَةِ. إِذَا، يَقُولُ يَسُوعُ عَنَّا "إِنَّا مَدِينُونَ وَلَا يُمَكِّنُنَا تَسْيِدُ دَيْنِنَا".

مَرَّاتٍ أَتَكَلَّمُ مَعَ أَنَابِسٍ يُفَكِّرُونَ عَلَى هَذَا النِّحْوِ قَائِلِينَ: "نَعَمْ لَا يُوجَدُ إِنْسَانٌ كَامِلٌ. بِالطَّبَعِ، اقْتَرَفْتُ الْأَخْطَاءَ فِي حَيَاتِي، بِالطَّبَعِ ارْتَكَبْتُ الْخَطَايَا، لَكِنِّي أَعِيشُ حَيَاةً صَالِحَةً وَمُتَوَازِنَةً وَأَعْوِضُ عَنْ أَخْطَائِي بِأَعْمَالِي الصَّالِحَةِ". أَلَا تُدْرِكُ أَنَّ اللَّهَ يَطْلُبُ الْكَمَالَ؟ إِنْ ارْتَكَبْتَ خَطِيئَةً وَاحِدَةً، مِنَ الْمُسْتَحِيلِ أَنْ تَفْعَلَ أَمْرًا كَافِيًا بِالْمُقَابِلِ لِلتَّعْوِيضِ عَنْ ذَلِكَ التَّعَدِّيِّ الْوَاحِدِ. وَنَحْنُ نَقُولُ بِارْتِجَالٍ "يَحِقُّ لِلْجَمِيعِ ارْتِكَابُ خَطَاٍ وَاحِدٍ". لَا أَعْلَمُ مَنْ أَجَازَ لَكَ ذَلِكَ. بِالطَّبَعِ، لَمْ يُجِزْ لَكَ اللَّهُ أَنْ تَرْتَكِبَ خَطِيئَةً وَاحِدَةً. لَكِنْ حَتَّى إِنْ أَجَازَ لَكَ ارْتِكَابُ خَطِيئَةٍ وَاحِدَةٍ، فَمَنْذُ مَتَى اسْتَنْقَدْتَ مَا يَحِقُّ لَكَ بِهِ؟ سَبْعُونَ فِي الْمِائَةِ مِنَ الشَّعْبِ فِي الْوَلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ تَتْرَاكُمُ عَلَيْهِمْ دُيُونٌ فِي بَطَاقَةِ الْإِثْمَانِ، وَالْبَعْضُ غَارِقٌ فِي الدُّيُونِ. لَدَيَّ صَدِيقَةٌ مَتْرَاكِمٌ عَلَيْهَا دُيُونٌ فِي بَطَاقَةِ الْإِثْمَانِ تَفُوقُ رَاتِبَهَا عَلَى مَدَى سَنَةٍ، لَا أَمَلٌ لَدَيْهَا فِي التَّمَكُّنِ مِنْ تَسْيِيدِ الدَّيْنِ. وَالْحَاطِئُ الَّذِي أَخْطَأَ إِلَى اللَّهِ لَا رَجَاءَ لَدَيْهِ إِظْلَاقًا فِي تَسْيِيدِ الدَّيْنِ. هَذَا هُوَ جَوْهَرُ

الإِنْجِيلِ بِرُمَّتِهِ: إِنَّهُ يَتَكَلَّمُ عَنِ رَحْمَةِ اللَّهِ. هَذَا الإِلَهَ الَّذِي هُوَ الإِلَهَ الَّذِي هُوَ الإِلَهَ الْعُصْبُ هُوَ أَيْضًا الإِلَهَ الرَّحْمَةَ.

وَالآنَ نَقْرَأُ فِي الْعَهْدِ الْجَدِيدِ أَنَّ اللَّهَ أَظْهَرَ لَنَا نِعْمَتَهُ فِي الإِنْجِيلِ مِنْ خِلالِ عَقِيدَةِ التَّوْبَةِ بِالإِيمَانِ وَحْدَهُ، حَيْثُ أَرْسَلَ اللَّهُ إِلَى الْعَالَمِ، فِيمَا كُنَّا لَا نَزَالُ خُطَاةً، ذَاكَ الَّذِي لَيْسَ عَلَيْهِ أَيُّ دُيُونٍ، وَالَّذِي عَاشَ حَيَاتَهُ كُلَّهَا فِي طَاعَةٍ كَامِلَةٍ. لِذَا مِنَ الْمُهِّمِّ لَنَا أَنْ نَفْهَمَ أَنَّ الْمَسِيحَ بِلا خَطِيئَةٍ، لِأَنَّهُ وَصَلَ إِلَى نِهَآيَةِ حَيَاتِهِ مِنْ دُونِ دُيُونٍ، وَجَاءَ إِلَى شَعْبِهِ الْعَارِقِ فِي الدُّيُونِ، وَالْعَاجِزِ تَمَامًا عَنِ تَسْجِيدِ دِينِهِ، وَقَالَ "أَعْطُونِي دُيُونَكُمْ". فَأَخَذَ ذَلِكَ الدِّينَ وَوَضَعَهُ عَلَى نَفْسِهِ. يَصِفُ بُولُسُ الأَمْرَ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ فِي رِسَالَتِهِ إِلَى أَهْلِ كُولُوسِي - كُولُوسِي الأَصْحَاحِ ٢ وَالآيَةِ ١٣: "وَإِذْ كُنْتُمْ أَمُورًا فِي الخَطَايَا وَعَلَفَ جَسَدِكُمْ، أَحْيَاكُمْ مَعَهُ، مُسَاحًا لَكُمْ بِجَمِيعِ الخَطَايَا، إِذْ مَحَا الصِّكَّ الَّذِي عَلَيْنَا فِي الفَّرَائِضِ، الَّذِي كَانَ ضِدًّا لَنَا، وَقَدْ رَفَعَهُ مِنَ الوَسْطِ مُسَمَّرًا إِيَّاهُ بِالصَّلِيبِ". يَا لَهَا مِنْ اسْتِعَارَةٍ رَائِعَةٍ لَوْصِفِ الكَفَّارَةَ: يَتَكَلَّمُ بُولُسُ عَنِ صُكُوكِ دِينٍ، وَعَنْ سَنَدَاتِ الدُّيُونِ، حَيْثُ إِنَّهُ حَتَّى فِي نَامُوسِ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ حِينَ كَانَ أَحَدُهُمْ يَكْسِرُ النَامُوسَ كَانَ يَتِمُّ تَدْوِينُ الأَمْرِ، وَكَانَ هَذَا بِمِثَابَةِ صِكِّ مَعْنَوِيٍّ بِالدِّينِ. مَدِينُونَ لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يُسَدِّدُوا الدِّينَ... هَذَا مَا قَالَهُ يَسُوعُ. هَذَا مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِطَبِيعَتِكُمْ. وَيَقُولُ بُولُسُ إِنَّ أَوَّلَ أَمْرٍ فَعَلَهُ الْمَسِيحُ عَلَى الصَّلِيبِ بِالنِّيَابَةِ عَنَّا هُوَ مَحْوُ دِينِنَا. لَقَدْ مَحَاهُ.

أَتَذْكُرُونَ دَاوُدَ؟ بَعْدَ أَنْ ارْتَكَبَ الإِثْمَ مَعَ بَثْشَبَعَ وَوَجَّهَهُ نَائِثَانُ النَّبِيُّ، وَصَلَ إِلَى مَرَحَلَةِ اعْتِرَافٍ حَقِيقِيٍّ، حَيْثُ صَرَخَ إِلَى اللَّهِ قَائِلًا: "يَا رَبُّ أَمْحُ مَا يَمِينِي. لَيْتَكَ تَمْحُوهَا مِنْ سِجْلِي وَتُلْغِيهَا مِنْ تَارِيخِي". وَهَذَا تَحْدِيدًا مَا يَفْعَلُهُ الْمَسِيحُ لِلأَشْخَاصِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِهِ: إِنَّهُ يَمْحُو دِينَهُمْ. ثُمَّ يَقُولُ بُولُسُ إِنَّهُ سَمَّرَ ذَلِكَ الصِّكَّ عَلَى الصَّلِيبِ. فِي الْعَالَمِ الْقَدِيمِ، حِينَ كَانَ يَتِمُّ إِبْطَالُ دِينٍ اقْتِصَادِيٍّ، بَدَلًا مِنَ الكِتَابَةِ "مَدْفُوعٌ بِالكَامِلِ" عَلَى الصِّكِّ، كَانَ يَتِمُّ وَضْعُ هَذِهِ العَلَامَةِ - أَيِ التَّصْوِيرِ البُيُوتَانِيِّ لِلصَّلِيبِ - كَانَ يَتِمُّ وَضْعُهَا عَلَى الصِّكِّ. فَاللَّهُ يَضَعُ حَرْفِيًّا صَلِيبًا عَلَى دِينِكَ حِينَ تَتُوبُ وَتَقْبَلُ الْمَسِيحَ. مَنْ فِي الْعَالَمِ يَقْدِرُ أَنْ يَقْيَسَ فَضْلَ تِلْكَ النِّعْمَةِ؟ وَرَحْمَةَ تِلْكَ الرَّحْمَةِ؟ هَذَا هُوَ الخُلَاصُ بِالمَعْنَى المَطْلُوقِ... تَصَوَّرْ أَنَّ الْمَسِيحَ أَبْطَلَ دِينَنَا إِلَى الأَبَدِ، وَضَمِنَ لَنَا غُفْرَانَ كُلِّ خَطِيئَةٍ ارْتَكَبْنَاها. لَيْسَ هَذَا فَحَسْبُ، بَلْ نَقَلَ إِلَى حِسَابِنَا كَمَالَ بِرِّهِ، لِجَمِيعِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ.

حِينَ يَفْعَلُ اللَّهُ ذَلِكَ، فَهَذَا لَا يَعْني أَنَّهُ لَمْ يَعْذُ قُدُوسًا، وَلَا يَعْني أَنَّهُ لَمْ يَعْذُ بَارًا. حِينَ يَصِفُ بُولُسُ عَمَلِيَّةَ التَّبَادُلِ هَذِهِ فِي رِسَالَةِ رُومِيَّةٍ، وَيُطْلِعُنَا عَلَى رِسَالَةِ الإِنْجِيلِ، فَهُوَ يَقُولُ إِنَّ مَا يُبَيِّنُهُ لَنَا الإِنْجِيلُ هُوَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ البَارُّ وَالَّذِي يُبَرِّرُ فِي الوَقْتِ نَفْسِهِ. وَهُوَ لَا يُفَاوِضُ أَبَدًا عَلَى بِرِّهِ. بَلْ يَحْرُصُ عَلَى مُعَاقَبَةِ الدَّنْبِ وَدَفْعِ نَمَنِ الخَطِيئَةِ. هُوَ لَا يُعْفِي مِنَ الدِّينِ فَحَسْبُ، بَلْ يُدَوِّنُ أَنَّهُ مَدْفُوعٌ، أَيُّ هُوَ يَطَّلُ عَادِلًا. لَكِنْ أَنْ يَسْمَحَ بِأَنْ يُسَدِّدَهُ شَخْصٌ آخَرَ سِوَانَا، فَهَذَا يُبَيِّنُ مَجْدَ

عَدْلِهِ وَغَنَى نِعْمَتِهِ الَّذِي لَا يُوصَفُ. فِي نَهَايَةِ الْمَطَافِ أَيُّهَا الْأَحْبَاءُ، مَا يُحَدِّدُ وُجْهَةَ النَّظَرِ الْمَسِيحِيَّةَ عَنِ الْحَيَاةِ هُوَ مَجْدُ الصَّلِيبِ.

الدكتور أ.ز. سي. سبرول هو مؤسس هيئة خدمات ليجونير، وكان أحد رعاة كنيسة القديس أندرو (St. Andrews Chapel) في مدينة سانفورد بولاية فلوريدا، كما كان أول رئيس لكلية الكتاب المقدس للإصلاح (Reformation Bible College). وهو مؤلف أكثر من مائة كتاب، بما في ذلك "كلنا لاهوتيون" و"أدهشني الألم".